طاغية القرية

مأساة ذات فصلين

بقلم يوسف غصوب

٤

(تتمة)

الفصل الاول

المشهد السادس

المهاجر وحده

المهاجر (بعد ان نظر طويلا الى الجهة التي خرجت منها المرأتان) مسكينتان ! هما ضحيتان لهذا الرجل الغاشم . لم تتغيّر حالة هذا البيت منذ تركته . نفسان تتعذبان ، ورجل لا يصغي الا لصوت المال ، ولا يهتزّ قلبه الا لرنين المال . هذه صورة العذراء لا تزال مكانها . وهذه الطاولة لا تزال في محلها . فكأنني خرجت من البيت في الصباح ، وعدت اليه في المساء . لم يتبدّل الا هذه الفتاة ليلى ، هذه الأُخيّة النعسة الشاحبة ! هي في ربيع الحياة ، اما قلبها فمظلم بالاسى والكآبة . آه ما اقساكَ ، يا جَشع ، وما اظلمك ! فان ريحك لسموم تيبس ما حولها من العواطف ، وان لونك لاسود يصبغ كل شيء بالسواد حتى نور الشمس .

ما اقرب السعادة من هذا البيت ! فانها على قيد خطوة منه . فما لابي الّا ان يفتح النافذة ويقول لها : ادخلي ! ولكنه بدلًا من ادخالها الى بيته ، قد بنى دونها حائطاً واصلًا بالسحاب ، حائطاً من البخل والطمع ،

من هذا المعدن الصلب القاسي ، فهل من سبيل لخرقه ! قد نغّص علينا عيشنا وشدّ على قلوبنـا بروابط ، فهي دائماً متألمة ، قلقـة ، لا تكاد تتنفس .

سافرت ، هربت ، تركت هـذا السجن طـالباً الهواء الطلق ، طالباً شيئاً من السعادة التي فتشت عنها هنا فما وجدتها . ولكن هل يسعد الشريد الطريد ؟ تكبّدت الاسفار ، وعانيت الاهوال ، واشتغلت كثيراً ، وتعبت كثيراً ، فجمعت مـالاً وفيراً . ولكني كنت دائماً وحيداً فريداً . كنت في غربتي كلما هممت بالضحك سبقت الدمعة الى عيني . . . ثم قلت : ارجع ، وارى اهلي . فلعلّ هجري يكون أثر في ابي فغيّر طباعه ، ولين عواطفه ! فاذا هو هو ، لا يزال كما كان . . . (يكاد يبكي) ماذا افعـل ؟ أأبوح بسرّي ، واخبر اهلي عن نفسي ؟ ام ارجع الى حيث كنت صامتاً حافظاً في صـدري حزني والمي ؟ . . . (امام النافذة)

ما اجمل لياليك وابهى سمائك يا لبنـان ! نجوم باسمة على مخمل ازرق ، فوق جبالـك البيضاء . ونسيم يسري بين الاشجـار ، ناقلاً تنهدات الازهار الى قلوب العذارى الساهرات . تراك ترقد حالمة بالسعادة على منحدرات الروابي ، وبين احضان الاودية . من نظر اليك ظنّ السعادة مخيّمة فوق اكواخك ، وفي جوانب قصورك . ولكن كم من قلوب حزينة ، وقلوب قاسية شرهة في هذه البيوت الهادئة ، وبين الصنوبر العطر ، والسنـديان الغض !

ابتسمي ، يا نجوم ؟ وعطّري ، يا نسمات الليل ! واسكبي السلام والصلاح في قلوب العباد حتى الصباح . . . (يأخذ القنديل ويدخل الى الغرفة .)

وفي هذه الآونة يسدل الستار قليلاً فقليلاً

الفصل الثاني

المشهد الاول

ابو شهيد

يرفع الستار بعد دقيقة ، فيبدو المسرح فارغاً وليس فيه من نور سوى كباية المذراء

ابو شهيد (يدخل جبة مضطربة) الف ليرة ذهبية ، واصبح اغنى رجل في القرية ، بل في القضاء اجمع . (يجلس الى الطاولة) بل تصبح القرية ملكاً لي . ويصير هؤلاء المتكبرون ، ابناء الاسياد ، ابناء الشيوخ والامراء ، اتباعاً لي ينظرون اليّ خائفين حاسدين . انا ابن الفلاح الذي لم يكن على شيء من حطام الدنيا ، ثم هو الآن قدير على كل شيء ، تفتح له المجالس والبيوت ، ويرفع صوته عالياً . تراعي الحكومة جانبه ، ويفتش الكبراء عن صداقته . مسموع الكلمة ، نافذ الارادة . فليبغضني من يشاء ، ولينفر مني من يشاء . فقد بلغت الذي بلغت بجدي واقدامي . قد كنت ويلاً على من اعترضني في طريقي ، ولا حرج ! فهذا حق القوي على الضعيف . الويل للضعيف ! هي سنة الطبيعة . فمن اراد ان يعيش فليكن قوياً . ان الانين والتلهف والاستخزاء لا يفيد شيئاً . فان العاصفة اذا مرّت لا تبقى الا على كل شيء متين ثابت .... ها ! ها ! ها ! غداً يأتي هذا الشامخ الانف ، هذا المتكبر المصعّر خده للناس ، ويمدّ يده صاغراً . قد انتظرتك طويلاً ، يا رامي . وقد حان وقتك (يتصوّر ان الرامي أمامه) تفضل ، ادخل . اجلس . انت في حاجة الى المال ؟ أه ! أه ! انت في حاجة الى هذا الشيء الذي احتقرته ، هذا الشيء الذي كنت ترميه من النوافذ ؟ انت في حاجة اليّ ؟ الى هذا الشخص الذي كنت تسخر به من مجلة ! ... تريد ان تبيع ؟ ... كم تريد ؟ ... تريد ان تهجر القرية ؟ ومن يكون ممثل القرية من بعدك ؟ انت رئيسها ،

انت عمادها ، انت خزينتها . كانت القرية تغترف من خزينتك ، اما الآن فاتيت تمدّ اليدين ، تسعى وراء المال ... كم تريد ! الف ليرة ؟ (كأنه رجع الى نفسه) الف ليرة ؟ ليس لديّ الف ليرة ... كيف العمل ؟ (افكار تتلاعب به) أأترك هذه الفرصة السانحة تفلت من يدي ؟ ... المال ! ... المال هنا ... المال راقد هنا بالقرب مني مع هذا الفتى النائم ... اهو القدر ساقه اليّ ! اهو القدر حليفي (يطب السكين التي على الطاولة) ماذا ؟ أإلى هذا الحدّ وصلت ؟ ... ارى الدماء على يدي ... لا . لا . اليك عني ، ايها اللعين ... (يجلس ويفكر) قرية «عين عذراء» تصبح بجملتها ملكاً لي . اصبح اغنى رجل في لبنان وكلمتي انفذ كلمة ... مَن هذا الفتى النائم هنا ؟ ! غريب ! لم يرَه احد ! ... لا . لا . (يدور في الغرفة ذهاباً واياباً مضطرباً) الف ليرة في جيبه . الليل ساكن . ما من احد على الطريق . نحن في بيت بعيد عن القرية . في البستان بئر عميقة مهجورة مغطّاة بالعوسج ... لا يمرّ بها احد ... لا . لا . اترى هذا الذي يقال له الضمير ! ... فرأسي يكاد ان ينفجر ... من يجرأ على اتهامي ؟ من يطالبني به ؟ ... انا اقوى من الجميع ... (يأخذ السكين عن الطاولة . وبعد ان يفكّر قليلاً يدخل الغرفة بكل سرعة)

المشهد الثاني

مريم . ثم ليلى . ثم ابو شهيد

مريم (تدخل بعد قليل) لم استطع ان انام . شيء يدفعني الى هذه الغرفة . وقلبي يقول لي ان هذا الفتى الذي هفت اليه نفسي منذ رأيته هو قريب مني ، هو شيء مني ، فمن تراه يكون ! ... قد اثار صوته في جوانب صدري عواطفَ غريبة ، وشعوراً عجيباً . تطلّعاته واشاراته تذكرني بتطلّعات وحركات اعرفها . اهو كاذب في ادّعائه بانه غريب عنّا ! اتراه يكون ولدي ! ... احبّ ان يخدعنا هذه الخدعة اللطيفة ! ايتها العذراء ، بحقّ ولدك الالهي ، لا تكذّبي رجائي ..

ليلى (تدخل) امي ، انت هنا ؟ ما انهضك من نومك !

مريم لا شيء ، يا ولدي ، وانت !

ليلى ارى ان فكرًا واحدًا دفعنا الى هنا . (تسمع جلاجل البغال من بعيد وصوت « عتابا »)

مريم نعم . فانا في شك من صحة كلام هذا الفتى ، وشيء يقول لي في اعماق صدري انه شهيد ولدي.

ليلى اخي .. اخي... ان هذه الافكار قد ساورتني منذ ذهابي للنوم، ولم تهدأ . فنهضت الى غرفتك لافاتحك بالامر ، فما وجدتك ، فاتيت الى هنا . آه فما اشدّ ما يكون سروري ان صحّ حلمي.

(يقترب صوت المكارين وصوت الجلاجل)

مريم لا تأملي كثيرًا ، يا بنيتي ، فان الخيبة اشدّ هولًا من اليأس !

ليلى (تطلّ من القنطرة) هؤلاء مكارون آتون من بيروت - اتسمعين صوت الجلاجل في اعناق البغال؟ هذا فياض ، ورفيقه سلمان.

مريم (تقترب من ليلى) ارى البغال قد اتجهت صوبنا ، واخذت في الطريق المؤدية الى البيت.

ليلى هي صاعدة بين التوت ... ربي ! هذه احمال مسافرين : صناديق ، واكياس ، وكراسي.

مريم وصلت البغال الى القبو ... وقفت.

ليلى اماه ، هو اخي.

(هنا يطلّ ابو شهيد من الباب ويداه عليهما دم ، وعيناه نافرتان.)

مريم يا خليل ، يا ابا شهيد.(تتجه نحو غرفته لتدعوه)

ليلى أبي ، أبي ، هو اخي . (تنظر الى ابيها واذ تراه في حالته الراعبة تتراجع الى الوراء)

ابو شهيد آه ! قد قتلت ولدي بيدي ؟ (ثم يسقط على الارض بلا حراك)

يترل الستار قليلًا فقليلًا

تمت